

هو العليم

آثار حسن الظن بالله والثقة بوعده

شرح دعاء أبي حمزة الثمالي - سنة ١٤٣٥ هـ ق - المحاضرة العاشرة

محاضرة ألقاها

آية الله الحاج السيد محمد محسن الحسيني الطهراني

قدس الله سره



@MadrastAlwamy



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد

وعلى آله الطيبين الطاهرين

واللعنة على أعدائهم أجمعين

«وَأَنَا يَا سَيِّدِي عَائِدٌ بِفَضْلِكَ هَارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ مُتَنَجِّزٌ مَا وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْحِ عَمَّنْ أَحْسَنَ

بك ظناً»

أنا لاجئ يا مولاي إلى فضلك وإكرامك، وهارب منك إليك، وكلّي أمل ويقين ورجاء في إنجاز ذاك الوعد الذي قطعته من العفو عن زلات وأخطاء من أحسن الظنّ بك.

ضرورة حسن الظنّ بالله أمام وساوس الشيطان

تقدّم أنّ هذه الفقرات تشير إلى حقيقة واحدة، وتحكي عن قضية واحدة، وإن شاء الله إذا وفقنا في الليالي التالية للاستمرار في البحث حول الفقرات التالية، فسيّضح أنّها كلّها ترجع إلى مسألة واحدة، وهي حسن الظنّ بالله؛ فالسالك ومن يسير في الطريق إلى الله لا بدّ أن يكون جاداً في حسن ظنّه؛ وذلك لأنّ الشيطان يأتي ويوسوس، ويضع في وجه الإنسان الأحداث والمجريات، ويبيّن له ما يوجب اليأس والقنوط ويقول: انظر إلى هؤلاء أتوا إلى الأولياء، ولكن ماذا حلّ بهم؟! هؤلاء الذين لازموا العطاء لسنوات مديدة انظر إليهم؛ فأحدهم صار كذا

والآخر صار كذا! وذاك الذي كنا ننتظر منه بعض الأمور انظر إلى أي حال انتهى! وذاك الذي كنا نتوقع منه أموراً أين هو الآن؟! وذاك الذي كان محطّ أنظار الجميع انظر ماذا يقول! فقد رأينا الكثير من هذه التجارب، رأينا ورأينا كثيراً حتّى قست جلودنا وشعرنا بعدم جدوى الطريق. وواقعاً كان يحدث مثل ذلك؛ ففي زمان المرحوم العلامة، بل حتّى في زمان أساتذته كان السّلاك يأتون، وكانوا يأتون بجهد، ويبقون لسنوات، وكانوا يحصلون على حالات، لا أنّهم كانوا هكذا! نعم، فبعض هؤلاء - والذي لو ذكرت اسمه لعرفه الجميع - كان يقول له المرحوم العلامة: اقرأ هذا الدعاء في الجلسات. وأذكر أنّه في ليلة من الليالي - ولا أذكر في أيّة مناسبة - كان يقرأ المناجاة الخمسة عشر، كان يقرأ والدموع تنهمر على خديّه، فالدموع لا تأتي من لا شيء! بل لا بدّ أن يكون لها منشأ وانكسار قلب! وأن تكون بسبب الحزن والتوجّه. نعم بعض الممثلين يعرفون جيداً كيف يؤدّون أدوارهم؛ بحيث يكون حتّى أنّهم يبدوون في مظهر أشدّ من صاحب المصائب، وأكثر تأثيراً في المخاطبين والمشاهدين، لكن كان ذلك الشخص يبكي، وأذكر حاله جيداً في تلك الليلة، ثمّ كان بعد قراءته لبعض الفقرات يشرع بترجمتها بنفسه فقد كان من أهل العلم، وأذكر دقيقاً أنّه كان يقول هذه العبارة: إلهي لا تسلب منّا أبداً توفيق الهداية الذي منحتنا إيّاه، وكان حاله جيداً، لا أنه في ذلك الوقت كان يمثّل، لا بل كان حقاً على هذه الحال وكان يتمتّع بصفاء عجيب!

الحالات التي تعرض للسالك ضيوف لا بدّ من إكرامها

وواقعاً هذا الأمر هو من العجائب! فما هو هذا الإكسیر الذي ما إن ينل منه أحد حتّى يتغيّر شكله ولحنه وتصرفه وعلاقاته؟! فهذا أمر عجيب جداً! إنّ الجلوس مع العظماء ومرادة الأولياء هو إكسیر، وكنا نشاهد هذا الأمر! لكن ينبغي علينا الاهتمام بضيافة هذا الضيف الذي حلّ في القلب - كما كان يقول المرحوم العلامة - يجب أن يُحتفى بهذا الضيف، ويجب أن يعتنى به؛ فلا يترك ليخرج من مكان آخر، أو أن لا يهتم به الاهتمام اللائق ويجب أن يحتفى بقدم هذا الحال وهذا التوجه وهذا الربط والارتباط وهذا الاهتمام! فهذه العبارة كانت دائماً تردّد على

لسان المرحوم العلامة؛ حيث كان يقول: إن الحالات التي تعترى السالك هي ضيف يحل عليه، ويجب على السالك أن يكرم هذا الضيف.

كيف نكرم ضيوف الحالات؟

١. عدم التصرف بما يضاها كاللقاء بأهل السوء

هل تدرون كيف يكرمه؟ بأن لا يتعامل معه بما يضاها! أن لا يفعل ما يوجب خروجه، ولا يشتغل بما يوجب تضعيفه وتوهينه! فهذا هو معنى الضيافة؛ أن يكون دقيقاً ويقظاً وعلى مستوى رفيع من الوعي حتى يقوى ذاك الحال، وإلا فبعمل واحد قد يذهب!

نقل لي أحد الأصدقاء يوماً حادثة عاشها فقال: انتابني في وقت من الأوقات حال، وكان عجبياً جداً. وذلك ببركة كونه آنذاك في قم مشغولاً بتحصيل العلم وكنت أنا أعرفه. يقول: خصوصاً عندما كنت أذهب إلى حرم السيِّدة المعصومة كان هذا الحال يقوى عندي؛ بحيث أني كنت أشعر بأن جميع ما حولي يترنم بذكر لا إله إلا الله! هذا بالإضافة إلى مسائل أخرى، وقد استمررت هذه الحالة معي إلى بضعة أيام، إلى أن كنت عائداً في ليلة من الليالي من الحرم إلى المدرسة - محل إقامته - وفي الطريق شاهدت رجلاً كان من أصدقاء المرحوم العلامة ثم انفصل عنه ومشى في طريق آخر، واشتغل بنفسه، شاهدته في الطريق وسلّمت عليه، حيث لم أستطع الفرار منه.. فسلمت عليه وسألته عن أحواله ومشيت لا أكثر! فذهبت تلك الحالة وانتهت، وعدت كحالي المعتادة. فبسلام واحد فقط ذهب كل شيء! رأيتم؟! ويقول: ليس فقط ذهبت تلك الحالة، بل حصل لي عكسها؛ فصرت أشعر بالكدورة، واستمررت هذه الكدورة إلى أسبوع كامل! يقول: إلى أن ذهبت إلى الحرم وأبرزت خطأي وأعلنت توبتي وندامتني فمُنَّ عليّ وقُبِلت توبتي وذهبت تلك الحالة!

هذا هو حسن الضيافة! تلك الضيافة التي كان ينبغي أن تكون لم تحصل! فالمسألة دقيقة ولها حساب يا عزيزي! والعلاقات لها تأثيرها، وهذه التعلقات لها تأثيرها، فشئنا أم أئينا هي تترك أثرها علينا! الأشخاص الذين لهم ارتباط مع هؤلاء تبدو علاقتهم تلك من أعينهم، تبدو

من شمائلهم، مهما حاولوا إخفاء ذلك بأن يطأطئوا رؤوسهم وأن يضعوا أيديهم على لحاهم.. فإن أشكالهم تبقى تنادي بذلك كاللوحه؛ فهناك لوحه تظهر ما أخفاه الوجه! وهناك لوحه وراء إشارات هذه العين، وهناك لوحه تكشف ما أخفته هذه الشمائل! وهذه اللوحه تحكي تلك الخفايا، وشئنا أم أبينا فحقيقة الأمر هي كذلك؛ فهذا العالم عالم قوانين تكوينية وعالم تربية، فالغذاء الذي تأكله سوف يشبعك شئت أم أبيت! فمن يكون جائعاً ويأكل سوف يشبع! وهذا ليس بيد الإنسان؛ سواء أكل بشهية أم أدخل الطعام غصباً إلى معدته، ففي النهاية سيشعر بالشبع، فهذا الطعام دخل معدته. ومن يكون عطشاناً ويشرب سائلاً سوف يروى؛ سواء كان هذا السائل سمّاً يمزق أحشاءه، أم كان ماءً، ففي كلتا الحالتين سوف يروى! لكن هذا سمّ وسوف يلاقي نتيجته، وإن كان ماء فهو. فنظام هذا العالم هو نظام تربية. ومن هنا فتوصية المرحوم العلامة وكلامه عن الرفيق بأن عليكم أن تكونوا حذرين، لا تصغوا إلى أيّ كان، ولا تسلّموا قلوبكم إلى أيّ إنسان، إنّما هي لأجل هذا! فهو لم يكن لديه عداة مع أحداً يا عزيزي! ولم يرد السوء لأحد، ولم يكن يحصل على شيء أو يخسر شيئاً من العلاقة بهذا أو بذلك، بل كان مجرد كلام يوجّهه إليّ ويقول: إن شئت قبلت به، وإلا فأنت تعلم! هذا هو معنى الضيافة.

عندما يأتي العظماء ويقولون بأنّ هذه الحالات لها حكم الضيف الذي يحلّ في القلب، إنّما هو لأجل هذه المسألة؛ فإنّه لا بدّ أن توفّر للضيف أجواءً خاصّة، ويمكنه أن يستمر ضمن ظروف معيّنة، فإن كانت الظروف مناسبة فسوف تستمرّ تلك الحالة وتتبدّل إلى ملكة، وإن لم تكن هذه الظروف مناسبة فسوف تعود وتذهب، وستقول: أنا لا أأخذ مأوى في المكان أو المنزل غير المناسب لي، ولا أبقى فيه!

٢. عدم إخبارها لمن ليس من أهلها

وهناك توصيات جمّة في هذا المضمار، فقد يقال بأنّ الحال الذي يحصل لك لا ينبغي أن تخبر به أحداً إلاّ أهله؛ لماذا؟ لأنّ الإنسان عندما يخبر به أهله فلن يكون له أثر سيّء، فإنّ هذا الإنسان له قابليّة لإدراك هذا الأمر، وسيقبّله بقول حسن، وأمّا إن لم يكن من أهله فسوف

يُحصل فعل وانفعال في نفس المخاطب، وهذان يحدثان أثراً في نفس صاحب الحال ويؤدّيان إلى خسارته، لتأثيره في مثاله وملكوته فيزياله.

فالرؤيا التي يراها لا ينبغي أن يروها لأحد، الحال الذي يحصل له لا يخبر به أحداً، والمشاهدة والمكاشفة التي تحصل له لا يُعلم بها أحداً؛ سواء كانت مكاشفة علمية أو مكاشفة صورية، كلتاها ينبغي أن لا يخبر بها أحداً، فإنّ كلاهما لا يمكن إدراكه من قبل أيّ إنسان! وليس لأيّ إنسان أن يفهمها! ولذا قال رسول الله: **"لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله أو كفره"**، يعني لو علم أبو ذر ما يدور في قلب سلمان من حقائق، وما هي المسائل التي حصل عليها سلمان، لقتله أو كفره. ومعنى قتله ليس أن يقوم بقتل سلمان، بل بمعنى أن إدراك هذه المعاني يقتل أبا ذرّ نفسه، لأنّه لا يقدر على تحمّلها ولا يمكنه استيعابها، فأحياناً يحصل اختلال للإنسان! بل في أحيان أخرى قد تصل المسألة إلى أمور خطيرة، لا أنّ المسألة بالأمر اليسير. ومعنى "لكفره" أن يقول عنه: إنه كافر، وأنه ليس له اعتقاد بشيء، ولا يقبل شيئاً ولا يمكن الاعتقاد بما يقوله.

معنى التنجّز وتجسّده عند بعض أهل المروءة من العوام

يقول الإمام هنا: **"...متنجّزٌ ما وعدت من الصّفح عمّن أحسن بك ظناً"**، أنا متنجّز وعلى يقين وثبات، وأنا معتقد بهذا الأمر جازماً... وإنّه لمن العجائب أن يواجه الإنسان أحياناً بعض الناس من غير أهل العلم ومن العوام، لكنّهم على يقين وثبات بالنسبة إلى ما يعلمون، وهم يقومون بأعمالهم بثبات وجزم. وواقعاً المسؤولية مقابل هؤلاء صعبة جداً، فعندما يرجعون إلى الإنسان لا يمكن أن يجيبهم جزافاً بغير تحقيق! لأنهم سيذهبون ويرتّبون أثراً على ما تقوله لهم! أمّا إن كان من الطّلاب أو ذوي العلم فسيجيبك: تتأمّل في ما تقول ونرى ونفكر فيه وننظر! فهذا - الذي هو من الطّلاب - لا مشكلة في اختيار ما تقوله له؛ فهو لا يستمع إليك أساساً، ورغم ما تخبره به يذهب ويرى ماذا يقال هنا وهناك...! لكنّ هناك من يأتي إليك ويقبل

منك، فليس لك أن تقول لهم شيئاً مخالفاً، لأنهم يرتّبون أثراً عليه! وهنيئاً لهؤلاء، فهم يتقبّلون الدين، وذوو ثبات عليه، هنيئاً لهم حقاً، وكم هو جميل أن يكون للإنسان مثل هذه الحالة!

ثبات و يقين المرحوم طيّب الحاج رضائي

رحمة الله على المرحوم الحاج طيّب حاج رضائي، وقد ذكره المرحوم العلامة مراراً، فطيّب هذا كان رجلاً من هؤلاء العوامّ من أصحاب المروءة والشأن، وكنت حينها طفلاً أبلغ من العمر ما يقارب السبع سنوات حين كنت أسمع باسمه أحياناً، وكان له في أيام محرّم مجلس خاص ومضافة، وكان لديه موكب عزاء خاصّ به مشهور جداً، إذ كان هناك عدة مواكب في الشوارع من جهة شابور ومحطة القطار وتلك الأماكن، وإحدى تلك المواكب موكب طيّب، وكنت في ذلك الحين أسمع شيئاً من قصصه تتردّد على ألسنة الكبار، إذ كان رجلاً صادقاً وذا موقف ثابت، أقول هذا لما كان عليه من الصمود واليقين وقد ذكرت لكم قبل ليالٍ قصة ذاك الرجل في أطراف آذربايجان.. حسناً، رحمة الله عليه، عندما حصلت أحداث الخامس عشر من خرداد (الخامس من حزيران) والثورة التي حصلت في هذا اليوم عام (٤٢ هـ. ش، ١٩٦٤ م)، حيث خرج الناس واعتقلتهم الحكومة وقتلت بعضهم، وقد جرت أمور في غاية الغرابة تلك السنة! وكان الحاج رضائي وموكبه من جملة الناس الذين خرجوا في أطراف (سرچمة)، وفي النهاية اعتقل من قبل الحكومة، وحلّ به في السجن كلّ بلاء يمكن أن يتصوّر... كم هي غريبة تلك الأفكار التي تخطر في أذهان البعض...! فقد طلبوا منه كلمة واحدة فقط؛ وهي: اعترف بأنك استلمت مالاً من السيّد الخميني! هنا ينقذ الإنسان دينه وغيرته والثبات واليقين والاعتقاد الذي لديه. لم يكن طيّب من مريدي السيّد الخميني، بل كان رجلاً عادياً وكان صاحب موكب عزاء حسينيّ.. وكان له نظائر كثيرة في المدن.. وكان أمثال هؤلاء موضع اعتماد الناس؛ حيث كانوا يأمنونهم على مفاتيح بيوتهم عندما يسافرون، ويعهدون إليهم بنسائهم وأطفالهم، فلم يكن أحد يجرؤ أن ينظر إليهم بعد ذلك! هكذا كان هؤلاء.. وقد لا يكونون من أهل الصلاة والصيام، لكنهم أصحاب مروءة وشهامة وفطرة وإنسانيّة ووجدان، وهذا هو الأساس والأمر المهم؛

فابن ملجم كان يصلي، ولكن هل كان لديه وجدان؟! أبدأ، أين وجدانه؟! هل كان إنساناً؟!
أبدأً. فتلك الغيرة التي كانت لديهم هي التي كانت تجعل الرجل يوكله بزوجه وأطفاله ويسافر
مطمئنًّ البال ويعود...

ورحمة الله على المرحوم العلامة؛ حيث سمعت منه مراراً هذا الكلام: لو لم يكن... -
انتبهوا إلى هذه العبارة واحفظوها ولتكن دائماً في أذهانكم - لو لم تكن تلك الطبقة من الناس
العوامّ من أصحاب الوجاهة والمروءة والشهامة كأمثال طيّب، لما بقي دين لدى الناس! وأما
الإشارة الموجودة في هذا الكلام فاكشفوها أنتم بأنفسكم! لو لم يكن هؤلاء لما بقي دين لدى
الناس...

لقد قاموا باعتقاله - إذا خرجت عن الموضوع الذي أوّد طرحه فنبّهوني؛ فإني أردت أن
أذكر شيئاً فصرت في شيء آخر- وقالوا له: قل: أخذت مالاً من هذا السيّد! قال: لا أقول!
وعبارته هكذا كانت: أنا لا أفترى على السيّد! لم يكن من أتباع السيّد الخميني ومريديه، لكن
قال: لماذا أفترى عليه؟! فهل يجب أن يكون الإنسان إماماً حتّى لا أفترى عليه؟! أمّا إذا كان
شخصاً عادياً فيمكنني ذلك وأقول لنفسي: هذا رجل عادي فافتر عليه ولا إشكال، ثمّ بعد ذلك
قل: لقد أخطأت؟! كلاً يا عزيزي! الافتراء أمر عظيم نحاسب عليه، وليس الأمر كما تقول.
قال طيّب: هو لم يعطني مالاً، فلن أقول بأنه أعطاني مالاً! فقالوا له: قل هذا الأمر نسلمك
المسؤولية الفلانية! فقد رأينا إلى أين وصل البعض، أولئك الذين باعوا آخرتهم بديناهم؛ أمثال
شعبان جعفري وغيره.. فأولئك كانوا في ذاك الطرف من القضية، وطيّب في هذا الطرف!
والحال أنهم كانوا يعرفون بعضهم وكانوا في طريق واحد! فقالوا: نعطيك المقام الفلاني! فقال
لا.. هذه الأمور كلها امتحان! وهو يحصل لنا جميعاً، لكن بصور مختلفة، وليس من الضروري
أن يكون الامتحان بهذه الكيفيّة حتماً! بل يحصل بصور مختلفة للإنسان؛ إذ يقف أمام أمرين: أن
يقول الحقّ أم لا! يفترى أم لا! يغضّ الطرف أم لا؟! لكنّ الملائكة أعينهم مفتوحة! أعينهم
غير مغلقة! وقد ذهبنا ذات مرّة إلى مكان، وفجأة رأينا شيئاً قفز أمامنا وذهب، وإذا به حَجَل ولم

نكن قد رأيناها أبداً، وكأنه وضع رأسه في الثلج ولم يكن بادياً أصلاً! يقال بأن الحجل يدس رأسه في الثلج، وهو يظن أن أحداً لا يراه.. كلاً فالملائكة يرون، وأعينهم مفتحة وهم ينظرون جيداً! فقال لهم طيب: لا! فرأوا أنه لا يمكنهم الوصول إلى نتيجة من خلال الترغيب، فتوسلوا بعد ذلك بالوعيد والتهديد؛ فقالوا سنؤذيك في زوجتك وأطفالك، وسنعدمك! فقال لهم: افعلوا ما يحلو لكم، فأنا لا يمكنني أن أفترى على السيد! وبعد ذلك قتلوه واستشهد! يقول المرحوم العلامة: إن طيباً في تلك المدة التي كان فيها في السجن قد طوى مراحل سلوكه إلى نهايتها! هل تعتقدون بأن السلوك هو صلاة الليل فقط وذكر اليونسية؟! مراراً ذكرت بأن صلاة الليل وذكر اليونسية تمثل خمسة بالمائة من السلوك أو اثنين بالمائة، وخمسة وتسعون بالمائة أو ثمانية وتسعون بالمائة شيء آخر؛ فعندما يقابل الإنسان خصمه ويكون صادقاً معه لا يكذب عليه، فهذا هو السلوك، لا أن يأتي ويفترى عليه. وهذا الأمر حصل لجميعنا وسيحصل لنا والآن يحصل! تحدث مثل هذه الأمور، نعم بالنسبة إلى الجميع، فلا تتصوروا بأن الأمر مقتصر على طيب، وإن كان طيب تحمّل الكثير، إذ لا يمكنني أن أذكر ما المصاب الذي حلّ به! طبعاً المسائل كانت ولا تزال، والزمان هو الذي يتغيّر.

ضرورة الاهتمام ببواطن الناس وعدم مواجهتهم لمجرد فساد ظاهرهم

يقول المرحوم العلامة بأن طيباً قضى في مدة سجنه كل ما عليه. وكنت شاهداً مراراً على أنه عندما كان يتشرّف بزيارة الشاه عبد العظيم - وكنا نذهب سوياً - كان يذهب بعد الزيارة إلى قبر طيب ويقرأ له الفاتحة، ويقول: سيّد محمّد محسن! أتعلم لماذا آتي إلى هنا؟ إنما آتي ليشفع لي هذا الرجل يوم القيامة! إلى أين يصل الإنسان بحيث يحصل على مرتبة الشفاعة يوم القيامة! أرايتم كيف ينظر الأولياء؟! فهو لا يقول أنا سيّد عالم! وأنا مسؤول مسجد القائم، محطّ أنظار الناس من حولي، ولديّ مريدون وتلاميذ... أبداً، يقول: أنا آتي إلى هنا حتّى يأخذ بيدي يوم القيامة، فهو يعلم أيّ قرب له عند الله! إذ هناك الموازين صحيحة دائماً؛ فلا ينظرون إلى الظاهر، لا ينظرون إلى الثوب والعمامة واللحية واللباس الأبيض والسبحة وخاتم العقيق! بل ينظرون

إلى القلب الصافي، وإن كان المظهر غير لائق! وإن كان شعر المرأة بادياً، وإن لم يكن الرجل ملتحمياً؛ فإن الكلام ليس في هذه الأمور، فهناك ينظرون إلى هذا القلب كم هو مستقيم! أما هذه الأمور فلهذه الدنيا، فنحن ننظر إلى الظاهر، فكل من يأتينا ويطأطئ رأسه ويقول: أعزكم الله!! فإننا نصدقه، فيا ويلنا لأن الله عالم بباطننا! لكن عندما يحين وقتك أيها العزيز الكريم فسوف يرونك العزة الواقعية، سوف يرونك عزة تجعلك لا تعود تفكر بالعزة أبداً! كنت تظن أنك عزيز...؟! أما ذاك الذي يكون ظاهره هكذا، لا يأتي ويميل برأسه ويقول أعزك الله! بل يكون صادقاً لا فرق بين ظاهره وباطنه، فهؤلاء لا ينبغي أن يُخرجوا عما هم عليه! وهؤلاء لا ينبغي أن نشكك في ثوابتهم، ولا ينبغي مواجهتهم، فالله يعاقب على ذلك! هؤلاء الذين لهم ظاهر غير مناسب، وأولئك اللواتي شعورهن بادية، وأولئك الذين قد يكونون مرميً لطنع البعض هنا وهناك، لكن قلوبهم صافية طاهرة، لا فرق عندهم بين الباطن والظاهر؛ بأن يقولوا في الظاهر أعزك الله، وهم في الباطن كأبي سفيان!

ظاهرش چون بو ذر و سلمان بود *** باطنش همچون ابو سفيان بود

[ظاهره كأبي ذر وسلمان، وباطنه كأبي سفيان]

فمن كان من هؤلاء مهما فعلنا معه فلا إشكال، بل مهما فعلنا معهم فهو قليل. لكن أولئك الصادقين لا ينبغي أن يُمسوا أبداً!

يقول المرحوم العلامة: أطلب الشفاعة من هؤلاء! طيب هذا كان لديه ثبات! لديه يقين بالإمام الحسين، لديه يقين بالأئمة عليهم السلام! هؤلاء كانوا صادقين وذوي موقف.

في الزمان السابق، كنا ذاهبين ذات مرة مع المرحوم العلامة إلى الحرم، كان ذلك في إحدى ليالي الشتاء! حيث كانت الأرض مغطاة بالجليد، وكنت خائفاً أن يحصل سوء لا قدر الله! لكن العلامة كان يصبر على الذهاب إلى الحرم ماشياً، لم يكن يركب السيارة! ومهما كنا ننصحه، كان يرفض ويقول لا أذهب إلى الحرم إلا ماشياً. والحاصل أنني كنت بخدمته، وكان قد وضع وشاحاً على عمامته حتى لا يصيبه البرد، ولكي تبقى رقبته مغطاة. فذهبنا إلى الحرم، وعدنا، وبينما كنا نمشي في الصحن، إذ أقبل رجل على غير ظاهر المتدينين، أتى بأدب وقال: هل أنت ابنه؟

قلت له: نعم! من المؤسف أن يكون مثلي ابناً له! من المخجل أن أكون منتسباً إليه! فقال: من هو؟ فقلت هو واحدٌ من الناس... قال: هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟ وكنا نبعد عن العلامة بثلاثة أو أربعة أمتار، والرجل يحدثني بصوت خافت بينما العلامة يسير أمامنا، ولم يَطلُ الكلام معه لأكثر من ثلاث أو أربع دقائق.. قال أريد أن أقول لك شيئاً: لقد شاهدت جميع العلماء - ولن أوضح أكثر؛ حيث ذكر من وأين ومتى رأهم - لكن عندما شاهدتُ هذا السيّد رأيت أنه يختلف عن الآخرين! فما هو سرّه؟ فقلت: حسناً ارجع إلى باطنك ووجدانك وستعرف سرّ ذلك بنفسك! ارجع إلى باطنك. وقد خجل أن يأتي إلى العلامة؛ لأنّ ظاهره لم يكن كما يجب! فقط قال: سلّم لي عليه وقل له: رجل وجدك بين جميع هؤلاء! ثمّ لم ألتفت إلى ما قال بعد ذلك، ثمّ ودعني وذهب!

انظروا! هذا يقول: لقد ذهبت وشاهدت الجميع، ورأيت أنّ هذا يختلف عن الجميع! في حين أنّ المسألة لو كانت بالعمامة، فالجميع يضع العمامة! ولو كانت باللحية والثوب وما شاكل لما اختلف الأمر. فبأيّ شيء كان يشعر حينها؟ لقد كانت فطرته تقوده نحوه، وبما أنّ فطرته صافية، فهو عندما يرى واقعاً وحقيقة ما ينجذب إليها سريعاً. أرايتم؟! قد ينظر الإنسان إلى بعضهم أحياناً فينزِع منه؛ لأنّه لا ينسجم معه، فهما لا ينسجمان! خلافاً لما لو نظر إلى من ينسجم معه، وهذا أمر يثير الدهشة! فخصوصيّة المرحوم العلامة كانت جلية للجميع؛ فقد كنت معه في جميع المواضع والأماكن التي ذهب إليها، ففي المستشفى كان الناس ينجذبون إليه بشكل تلقائي! وما شاء الله لم يكن مريضاً بمرض أو مرضين! وقد قلت له ذات مرة: سيّدنا! الظاهر أن ملفكّم الطّبيّ قد اكتمل؛ إذ صار فيه من كل الأمراض: القلب والمعدة وضغط الدم والعين وغيرها... فضحك وقال: لا بل بقيت بعض الأمراض لم أصب بها حتّى الآن!

وفي كلّ مرة كنّا نخرج من المستشفى لنعود إلى المنزل، كنّا نخلف وراءنا موكب عزاء من قبل الممرّضين؛ نساء ورجالاً، وكانوا يودّعوننا بدموعهم إلى أن نخرج. فهؤلاء يفهمون الواقع وينجذبون إليه، والحال أنّ الكثير كانوا يذهبون إلى نفس المكان، ففي الوقت الذي كان هو في المستشفى كان هناك آخرون يعالجون أيضاً، لكنّهم كانوا عاديين في التفاعل معهم!!

طيب هذا كان رجلاً ذا ثبات، ذا يقين بالإمام الحسين وذا يقين بالأئمة، كان يحسب لهم حساباً؛ فقد نقل لي رجل وهو بنفسه رأى ما نقله إليّ، رحمة الله عليه قال: كنت أعرف طيباً وكان رجلاً كثير المزاح، وفي يوم من الأيام رأيت منه شيئاً لم أراه من أحد سواه؛ فقد كنت في موكبه يوم عاشوراء أيام شبابي - والكلام له رحمة الله عليه وهو المرحوم الحاج حسين كبير وكان من أهل الولاء وكان منبرياً معروفاً من سكان قم، فهو الذي نقل لي هذه الحادثة - قائلاً: كنت شاباً في ذلك الوقت وكنت في موكب طيب يوم عاشوراء، وجاء الناس وقدّموا لهم الطعام، وكانت القدور كثيرة، وكان لديه موكب كبير جداً، وكان الكثير من الناس يأتون إليه ويأكلون عنده. وبعد الظهر، عند الساعة الثانية بعد الظهر تقريباً، كان الطعام قد نفذ والناس قد ذهبوا، وإذا بخبر يأتيه بأن مسيرة عزاء جديدة ستصل، وبدون سابق تنسيق.. إذ كانت المواكب تخبر بعضها بأنهم سيأتون، لكن هؤلاء جاؤوا بغير إخبار، ولعلهم لم يجدوا مكاناً آخر فجاؤوا إلى طيب المسكين، وقالوا: ليكن غداؤنا عنده. فقال: ما الخبر؟ فقليل له هناك موكب من مئات الأفراد سيصل إلينا بعد قليل.. ولم يكن قد بقي في القدور شيء، إلا قدر يحتوي على ما يكفي لعشرة أشخاص أو خمسة عشر شخصاً، فيه بهذا المقدار من الأرز أو الطيبخ مثلاً، فتحيرنا ماذا نفعل؟! وإذا به يقوم ويقول: لا تقلقوا أبداً؛ فالموكب للإمام الحسين عليه السلام وهو يعرف ما الذي سيفعله. فقال المرحوم الحاج حسين كبير: رأيت بعيني أنه ذهب وفتح غطاء القدر، وأخرج طعاماً هؤلاء الأشخاص الأربعمائة وأطعمهم جميعاً. بعد ذلك ذهبت ونظرت في القدر وإذا بالطعام كما كان؛ مقداره يطعم عشرة أو خمسة عشر. فلأني شيء يحصل هذا؟ ومن منّا يمكنه أن يفعل ذلك؟ تفضلوا بسم الله! نحن المدّعون الذين ندّعي بأن الجنة لنا، وأن صدر الجنة لي أنا! ولكن لو وضعت يدي في القدر الذي يحتوي على ما يطعم خمسة عشر رجلاً لتبخّر ولما بقي فيه شيء! تماماً كما فعل مسيلمة الكذاب الذي قيل له: إن النبي كان يبصق في البئر فيرتفع ماؤه! فقال أنا أبصق فيه فيجف!! فالمعجزة معجزة! فهل تستطيعون أن تفعلوا هذا؟! نعم إنه محق! فالمعجزة معجزة في النهاية! فأنا أبصق وأجفف البئر، ومعجزتي هكذا على العكس من تلك، تجفّ البئر...!! أقوم بالصلاة [صلاة الاستسقاء] فتذهب الغمامة التي فوقنا!

حسناً، كان لدى طيّب يقين، يقين بالإمام الحسين، يقين بموكب الإمام الحسين. وهذا
اليقين هو المهم!

قصة أحد العلماء في ترك صلاة الاستسقاء حفظاً لماء وجه التشيع

وتذكرت الآن مسألة لا بأس بذكرها، وإن كان الوقت قد شارف على الانتهاء:
كنت أقرأ في كتاب... وهذه المسائل مهمّة جداً، ومن القواعد الأساسيّة في فتح الطريق
أمام الإنسان وتصحيح المسير الاعتقاديّ لديه، فكم نحن بعيدون عن هذه الحقائق! كنت أقرأ
في ذلك الكتاب أنّ أحد العلماء - وقد مات فعلاً - أبعث في زمن الشاه إلى إحدى المناطق في
کردستان، وبقي هناك مدّة من الزمن، وكان له نشاط فيها والناس يعرفونه، وكان واضحاً لهم
من هو وما هو مقامه؛ حيث كان يعيش بينهم منذ زمن، وكان المطر قد حبس مدّة عن تلك
المنطقة، ووقع الناس في حالة من الضيق، وتضرّرت زراعتهم، وحتى هم تضرّروا من ذلك،
إلى أن اقترح بعضهم بأنه ينبغي أن نصليّ صلاة الاستسقاء، فأتوا إليه وأصرّوا عليه أن يصلي،
لكنّه استنكف ورفض الصلاة! وقال: اذهبوا أنتم وصلّوا مع من ترون - وكانوا من أهل السنة
- اذهبوا وصلّوا بأنفسكم! وبعد ذلك سأله أحدهم لماذا لم تصلّ؟ أليس لدينا صلاة الاستسقاء
في الشرع؟! لدينا حتماً في الفقه صلاة الاستسقاء! وقد حصل أن صلّيت صلاة الاستسقاء
وأمرت بسببها، ومن قصصها المعروفة بين الجميع ما جرى في حياة السيّد محمد تقي
الخوانساري والسيّد حجت، حيث انقطع المطر مدّة طويلة عن قم، فذهب السيّد الخوانساري
للصلاة في اليوم الأول مع الناس ولم تمطر، وفي اليوم الثاني خرج في جماعة من خاصة أصحابه
وصلّوا.. يقال بأنهم عندما عادوا تلبّدت السماء بالغيوم، وتزامن ذلك مع وجود الإنكليز؛ حيث
ظنّوا بأنّ الناس قد خرجوا للثورة عليهم، لذا كانوا في حالة استنفار، وكانوا يسخرون من هذا
العمل، ويقولون: أرسلوا إلينا المطر أيضاً والغيوم، فإذا أمطرت عندكم فأرسلوا إلينا منه
أيضاً.. وكانوا يسخرون منهم! يقال بأنّ المطر هطل إلى حدّ أنّ نهر قم امتلأ حتى كاد يفسد ما
حوله وكان ذلك في وسط الصيف. والحاصل أنّ صلاة الاستسقاء هكذا تصنع.

نعم، فقد استنكف هذا العالم عن إقامة صلاة الاستسقاء، وعندما سئل عن ذلك قال:
أخاف أن أصليّ ولا ينزل المطر؛ فيؤدّي ذلك إلى إهانة مذهب التشيع أمام أهل السنة. انظروا!
من هنا نكتشف أن هذا الرجل غير متنجّز ويفتقر إلى اليقين. فما علاقتي أنا وأنت بهذا الأمر؟!
قيل لنا: صلّوا صلاة الاستسقاء؛ فعلينا أن نصليّ! أفهل أنا وأنت قيّمان على الدين؟! وهل
المسؤول عن الدين هو أنا وأنت؟! وهل وكيل الدين هو أنا وأنت؟! إن وليّ الدين هو واحد
وهو غائب، وهو يعلم أن الدين له. ألم ترد صلاة الاستسقاء في الفقه؟ إن كانت لدينا في الفقه
فلماذا تحمل همّاً؟ هل تريد أن تحمل همّ الدين؟! فالدين له صاحب! فما دخلك أنت! وما دخلي
أنا! فإن أراد صاحب الدين أن يذهب ماء وجه هذا الدين فليذهب! نحن لدينا تكليف طبق
الفقه وطبق الشرع الذي بين أيدينا وطبق الأحكام التي كلّفنا بها، فهي تفيد بأن هناك تكليفاً
خاصّاً؛ فصلاة الاستسقاء لها كفيّة خاصّة، فقد جاء فيها أنه ينبغي أن يكون الخطيب على هيئة
خاصّة، ويلبس ثوبه بنحو معيّن، وأن يكون الرجال في موضع والنساء في آخر، بل حتى الأطفال
ينبغي أن يشاركوا فيها... فما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يصليّ؛ سواء هطل المطر أم لم
يهطل، فهذا ليس باختيار الإنسان ولا من تكليفه!

هنا نصل إلى هذه النقطة؛ وهي أنه حينما نبدو قلقين على الدين، فإنّ قلقنا هذا هو على
موقعيتنا في الواقع، لا على الدين، فإن كان على الدين فللدين صاحب؛ فما علاقتي أنا بذلك؟!
أصلاً قد يريد الله أن يذهب ماء وجه التشيع! فليذهب! فما دخلي أنا؟ لكن المهمّ أن ما هي
وظيفتي؟ هل أنا متوليّ الدين، أم أيّ مجرد مكلف؟ وظيفتك هي أن تصلي الآن والسلام! ولعلّك
لو صليت لكان المطر قد هطل! من هنا نعلم بأنّه ليس لدينا يقين بالحقائق! نعم، نقرأ الكتب
والروايات ونستنبط، لكن ليس لدينا يقين.. أمّا هؤلاء الناس العوام فلديهم يقين! والله
سيتعامل معهم على أساس يقينهم هذا!

لذا يقول الإمام السجّاد: أنا على يقين من ذلك الوعد الذي قطعتة للذين أحسنوا الظنّ
بك بأن تتجاوز عن سيئاتهم، فلست يا ربّ مثل أولئك الذين يقولون: نحن لا نصليّ صلاة
الاستسقاء كيلا يذهب ماء وجه الدين! لا بل أصليّ صلاة الاستسقاء، سواء هطل المطر أم لم

يهطل! فأنا أقوم بهذا العمل لأنك أمرتني به، وسواء حصلت النتيجة أم لم تحصل! فالمسؤولية ليست بعهدتي، بل بعهدة شخص آخر.

حسناً إن شاء الله، نسأل الله أن ينور قلوبنا بنور فهم المباني والشعور بها ببركة هذه الليالي والأيام المباركة، وأن يوفّقنا للعمل بما ذكره هؤلاء العظماء من صميم قلوبهم وناجوا به ربهم...

اللهم صل على محمد وآل محمد .